۱۶۶۱۴۳

مجله	حضارة الاسلام
تاریخ نشر	شوال ـ ۱۴
شماره	۸-۹-۱۰ سال ۲۱
شماره مسلسل	
محل نشر	دمشق
زبان	عربی
نویسنده	محمود ناظم نسیمی
تعداد صفحات	۲۵ ـ ۳۱
موضوع سرفصلها	مفاهیم حول التوکل
کیفیت	
ملاحظات	

مفاهيم حول التوكل

الدكتور محمود ناظم النسيمي

التوكل هو اعتماد القلب على الله الوكيل وحده في نجاح الاعمال والاسباب المشروعة لبلوغ مسبباتها المقصودة والمشروعة ايضا .

والاسباب اما ان تكون اعمالا ايجابية كالتداوي والعمل في الحرفة ، او اعمالا سلبية بالترك كترك بعض الاطعمة في الحمية المرضية وعدم مجالسة المصاب بمرض سار عن طريق التنفس مثلا وعدم المشي على حافة جرف .

واساس التوكل مع الاتيان بالاسباب هو الاعتقاد بان الله-مالك الملك له القوة جميعا بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

وللتوكل على الله تعالى درجات ادناها الثقة بكفالة الله وعنايته وهو المطلوب من كل المسلمين تصديقا بقوله تعالى : « **أليس الله بكاف عبده(١)** » .

وكما يرتبط التوكل بالعمل فان له ارتباطا بالايمان على اساس ان القدر من اله عليم خبير مريد عادل حكيم .

ان التوكل عمل من اعمال القلب وهو شعبة من شعب الايمان وباب من ابواب المحبة الالهية يشهد لذلك قوله تعالى : « **واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون(٢)** » « **ومن يتوكل على الله فهو حسبه(٣)** » « **... ان الله يحب المتوكلين(٤)** » ، وبه يحصل اطمئنان النفس وسكينتها في دار الدنيا وبه يحصل الثواب الجزيل في جنات النعيم .

لا تضاد بين التوكل والعمل :

بما ان التوكل من الاعمال القلبية وهو شعبة من شعب الايمان بالله

(١) سورة الزمر/٣٦ .
(٢) سورة المائدة/١١ .
(٣) سورة الطلاق /٣ .
(٤) آل عمران/١٥٩ .

٨-٩-٢١/١٠
شوال ١٤٠٢

حضرة الاسلام

واحد . فلا تضاد بينه وبين الاعمال الحسية غير المحرمة سواء اكانت مباحة أم واجبة ، فالمسلم يؤدي الاسباب المشروعة معتمدا في بلوغ الغاية والمقصود منها على الله وحده يعطي الفلاح الزراعة حقها من اختيار البذار وفلح الارض وتعشيبها وريها ومكافحة الحشرات ضمن امكانياته وطاقاته ويعتمد على الله راجيا ان يكلل عمله بالنجاح وان يعطيه الثمرات الطيبة لما قدم . وكذلك التاجر فانه يجري الاسباب المشروعة والمتبعة في الاصول التجارية على ما يراه مع مراعاة الحلال والحرام في المعاملات التجارية ويسلم امره الى الله تعالى ويلجأ اليه راجيا ربحها . وكذلك الصانع يتقن عمله ويحاول ترقيته ويتكل على الله في نجاح عمله وربح مصنوعاته . وكذلك الطبيب يتقن عمله ويتابع دراساته من أجل معرفة التطور العلمي في التشخيص والمداواة ويدقق في فحص مريضه ثم يصف الدواء معتمدا على الله ان يكلل عمله بالنجاح وان يشافي مريضه . وكذلك المريض يتقيد بالحمية والدواء الموصوفين من قبل الطبيب ويتوكل على الله في بلوغ الشفاء والعافية . اما النتائج الغيبية والطوارئ التي تعرض فهي ملك الله تعالى تنزل وفق قدره اي وفق علمه المقرون بحكمته وارادته ورحمته وعدله تبارك وتعالى .

ان هذا الربط بين التوكل والعمل ليس بدعا من القول وانما هو ما يدل عليه القرآن الكريم ، قال الله تعالى : « **واتقو الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون** » ففي الآية امر بالتقوى وبالتوكل والتقوى تكون بطاعة الله بعمل اوامره واجتناب نواهيه . وقال تعالى : « ... **وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين** » اي شاور اصحابك في شؤون الدولة والحرب فاذا عزمت على امضاء ما تريد بعد المشاورة فنفذه وتوكل على الله ، فالتوكل يقارن الارادة المصممة العازمة على اجراء عمل مشروع . وقال رسول الله ﷺ : « **لو انكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا**(٥) » اي تغدو بكرة وهي جياع وتروح عشية وهي ممتلئة الاجواف شباعا ، والمعنى لو انكم كنتم توكلون على الله في مساعيكم حق التوكل لما خيبها ولسهل لكم سبل العيش فيأتيكم رزقكم كما يأتي الطير تغدو خماصا وتروح

(٥) رواه الترمزي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في باب التوكل على الله من كتاب الزهد وقال : حديث حسن صحيح (ورقمه ٢٣٤٥) كما اخرجه ابن ماجة في الزهد والنسائي . وفي كشف الخفا برقم ٢٠٩١ (لو انكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا) وقال : رواه احمد والطيالسي في مسنديهما والترمذي وابن ماجة عن عمر مرفوعا ، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وحسنه الترمذي ، ثم نقل عن العسكري قول ابن عباس وقول عمر بن الخطاب .

بطانا . فلم يقل الرسول عليه الصلاة والسلام : ياتيها رزقها الى أعشاشها دون ان تفتش عن قوتها . وفي القرآن العظيم قوله تعالى : « **هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور**(٦) » وقوله سبحانه : « ... **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله**(٧) » .

فعلى المسلم ان ياخذ بالاسباب المشروعة وان يرفقها بتوكل قلبه على الله تعالى معتمدا عليه في بلوغ الغاية المرجوة . فعن عمرو بن امية الضمري انه قال : « **قال رجل للنبي ﷺ — وقيل القائل عمرو — ارسل ناقتي واتوكل ، قال : اعقلها وتوكل** (٨) » .

والعسكري عن وهب بن منبه انه قال : سئل ابن عباس عن التوكل فقال : (الذي يحرث ويبذر ويذره بين المدر) . وله عن معاوية بن قرة انه قال : (لقي عمر بن الخطاب ناسا من اهل اليمن فقال : ما انتم ؟ فقالوا متوكلون ، فقال : كذبتم انتم متاكلون ، انما المتوكل رجل القى حبه في الارض وتوكل على الله عز وجل) .

قال ابن حجر(٩) : قال الطبري : قيل لا يستحق التوكل الا من لم يخالط قلبه خوف من شيء البتة حتى السبع الضاري والعدو العادي ، ولا من يسعى في طلب رزق ولا في مداواة الم . والحق ان من وثق بالله وايقن ان قضاءه عليه ماض لم يقدح في توكله تعاطيه الاسباب اتباعا لسنته وسنة رسوله فقد ظاهر ﷺ في الحرب بين درعين ، ولبس على راسه المغفر ، واقعد الرماة على فم الشعب ، وخندق حول المدينة ، واذن في الهجرة الى الحبشة والى المدينة ، وهاجر وتعاطى اسباب الاكل والشرب وادخر لاهله قوتهم ولم

(٦) الملك/١٥ .

(٧) الجمعة/١٠ .

(٨) قال العجلوني في كشف الخفا (رقم ٤١٨) : اخرجه ابن حبان وابو نعيم ، وقال : (اعقلها وتوكل) رواه الترمذي عن انس وقال : غريب ونقل عن يحيى بن سعيد القطان انه منكر ، والبيهقي وابو نعيم وابن ابي الدنيا عن انس انه قيل : (قال رجل : يا رسول الله اعقلها وتوكل او اطلقها وأتوكل ، قال : اعقلها وتوكل) يعني الناقة ، واخرجه ابن حبان وابو نعيم ايضا عن عمرو بن امية الضمري .... ورواه الطبراني عن ابي هريرة بلفظ « قيدها وتوكل » وتوكل ا هـ .

قال المناوي في فيض القدير : ان سند ابن حبان صحيح وسند الطبراني بلفظ «قيدها وتوكل» جيد ، وكذلك رواه ابن خزيمة بهذه الصيغة بسند جيد .

(٩) في فتح الباري في باب من لم يرق .

ينتظر ان ينزل من السماء وهو كان أحق الخلق ان يحصل له ذلك ، وقال للذي سأله : اعقل ناقتي او ادعها ؟ قال : اعقلها ، وتوكل ، فاشار الى الاحتراز لا يدفع التوكل والله أعلم . اهـ .

كيف يكون العمل متنافيا مع التوكل على الله مع ان اتقان العمل مطلوب والمتقن محبوب الى الله تعالى ، قال رسول الله ﷺ : **« ان الله يحب اذا عمل احدكم العمل ان يتقنه(١٠) »** .

فدعوى التوكل على الله والرجاء منه دون عمل دعوى باطلة واغترار بالله تعالى . سئل السيد احمد الرفاعي رضي الله عنه عن علامة الراجين فقال(١١) دلنا على ذلك القرآن العظيم. قال تعالى في كتابه العزيز : **« ان الذين يتلون كتاب الله واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور(١٢) »** ثم قال رحمه الله تعالى : الرجاء غير التمني ، فالرجاء حسن الظن بعد صالح العمل ، والتمني اهمال العمل والاغترار بالله تعالى . قال رسول الله ﷺ : **« الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله (١٣) »** اهـ .

ومما تقدم يتأكد لدينا انه لا تنافي بين العمل المشروع والاتقان بالاسباب المباحة من جهة وبين التوكل على الله عز وجل من جهة اخرى . فمن ادعى ان التوكل يتنافى مع العمل او الاخذ بالاسباب فهو جاهل بالاسلام جهلا كبيرا . جاء توهمه عن عدم ادراك حقيقة التوكل وعن تذكر بعض صفات او اسماء الله المتوكل عليه والغفلة عن الاسماء الاخرى ولله الاسماء الحسنى تبارك وتعالى . فمثلا انه يذكر انه يتوكل على اله قادر على كل شيء ويغفل ان ذلك الاله بذاته عليم خبير عادل حكيم خالق للاسباب والمسببات . يقول انه يتوكل على الله في الشفاء من مرضه مع انه يعبث إبي وسائل الصحة ويحتقر الدواء الذي خلقه الله سببا للشفاء وما انزل الله من داء الا انزل له شفاء .

---

(١٠) وفي لفظ عملا بالتنكير رواه ابو يعلى والعسكري عن عائشة ترفعه ، رواه العسكري ايضا بلفظ (ان يحكمه) ورواه البيهقي بلفظ (ان الله يحب من العامل اذا عمل ان يحسن) اهـ عن كشف الخفا ٢٤٥/١ رقم ٧٤٧ .

(١١) مراحل السالكين للسيد الرواس ـ بحث مرحلة الرجاء .

(١٢) سورة فاطر/٢٩ .

(١٣) كشف الخفا برقم ٢٠٢٩ (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى) رواه احمد وابن ماجه والحاكم والعسكري والقضاعي والترمذي وقال حسن عن شداد بن اوس مرفوعا .

ان كل ما في هذا الكون من عناصر واجسام وخواص فيزيائية وكيميائية، كل ذلك مرتبط بقوانين محكمة تشير إلى ان الصانع المبدع خبير حكيم . ويشير الكون بوجدته المتماسكة وقوانينه المتناسقة الى وحدة الخالق تبارك وتعالى .

فلا يليق بالمسلم ان يغفل عن ان الخالق الذي يعبده كما انه قوي قدير فإنه عليم خبير حكيم ، وان الاسماء الحسنى كلها صفات لذات واحدة . فان غفل عن ذلك جرته الغفلة الى سلوك متناقض . فترى الغافل يملأ بطنه من الوان الطعام ويفتش عن شتى الوسائل ليزيد ربحه ويحزن لفقدان اشياء تافهة ، ثم انه عندما يحتاج الى التداوي يستمر اساه لتوقع صرف المال على غير الطعام واللباس فيتعلل عارفا بحقيقة اهماله او جاهلا بتدليس الشيطان عليه فيقول : توكلت على الله مهملا التداوي . ان التوكل مطلوب والفهم الصحيح للتوكل مطلوب ، لم لا يترك ذلك المدعي الطعام ويقول توكلت على الله المشبع في بلوغ القوة . ان امثلة التناقض في سلوك كثير من المسلمين كثيرة في شتى ميادين العمل والعيب فيهم وفي جهلهم لمفاهيم الاسلام وفي تجاهلهم لها ويبقى الاسلام عظيما في تعاليمه ومفاهيمه .

لا توكل في ترك واجب او فعل معصية :

لا يستلزم التوكل ترك العمل والاخذ بالاسباب كما بينت ، بل ان اتيان العمل على الوجه المشروع يدل على صدق صاحبه في توكله ، وان اهمال الواجبات ومجانبة المعقولات دليل على عدم وجود التوكل .

ان ما يستلزمه التوكل حقا هو الابتعاد عن المحرمات والمكروهات والشبهات والاهمال والابتعاد عن الرياء والشرك الخفي . فالذي يغش او يسلك الطرق الملتوية غير المشروعة لبلوغ مقصد يدعي انه مشروع ، وكذلك من يجعل الغاية غير المشروعة هدفا لاعماله ، ان اولئك يتعلقون بالمادة ويعتمدون عليها وعلى وسائلها اعتمادا قويا تنسيهم ذكر ربهم والاخلاص له والتوكل عليه سبحانه وتعالى . ولو كان احدهم صادقا في دعوى اتكاله على الله في بلوغ مطلوب مباح وغاية مشروعة لسلك اليهما طريقا مباحا فالغاية النبيلة تحتاج الى وسائل نبيلة ايضا .

لا توكل مع الاسباب الوهمية :

ان الاسباب اما ان تكون قطعية او ظنية او وهمية .

فالاخذ بالاسباب القطعية للمباحات والواجبات شرط لا يتنافى مع حقيقة التوكل . مثال ذلك تناول الطعام من اجل التقوي على الطاعة ومكافحة الجوع ، واخذ الدواء المعروف انه دواء يقينا لمرض معين كدواء التيفوئيد مثلا، والاستعداد للجهاد قال الله تعالى **« ولو ارادوا الخروج لاعدوا له عدة(١٤) »**

---

(١٤) سورة التوبة / ٤٦ .

فبكت الله على المنافقين في هذه الآية بانه لو صدقوا في دعواهم الرغبة في الخروج الى الجهاد لاستعدوا له واخذوا بأسبابه ، فالتسلح للجهاد لا يتنافى مع التوكل على الله تعالى في بلوغ النصر(١٥) ، بل ان تركه يتنافى مع التوكل كما يتنافى معه ترك الاسباب القطعية لدى الرغبة في مسبباتها الواجبة او المباحة .

اما الاسباب الظنية التي قد تفلح وقد تفشل ، فان لم يتغلب الظن بالفلاح فان المؤمن بالخيار ان شاء اخذ بها وان شاء تركها وتخيره في كلتا الحالتين لا يتنافى مع التوكل على الله ، مثال ذلك استعمال دواء للسرطان نسبة الاستفادة منه لم تتجاوز (٥٠٪) .

اما الاسباب الوهمية كأن يريد ان يجرب الكي من مرض لم يعرف اي دواء له او ان فوائده نادرة الحدوث تجاه مرض معين ، وقد يكون حدوثها من باب الصدفة ، فاستعمال الكي في هذه الحالة اخذ بالاسباب الوهمية والاخذ بها مناف للتوكل . وكذلك طلب الرقية من شخص لمرض مع اهمال الدواء المعروف الناجع المتيسر الاقتناء ، قال رسول الله ﷺ : « **من اكتوى او استرقى فقد برىء من التوكل**(١٦) » وروى الامام مسلم عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « **يدخل الجنة من امتي سبعون الفا بغير حساب ، قال : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون ...** » ، وفي رواية نحوه وزاد فيها « **ولا يتطيرون** » . وفي رواية للبخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في حديث طويل عن الذين يدخلون الجنة بغير حساب ... فقال : « **هم الذين لا يتطيرون ولا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون ...** » ولم يقل هم الذين لا يتداوون بل نفى عنهم التعلق بأمور وهمية .

والخلاصة : ان التوكل عمل قلبي لا يتنافى مع الاخذ بالاسباب المفروضة او المباحة التي تؤدي الى مسبباتها قطعا او ظنا ولا يتنافى مع اتقان العمل ، ولكنه يتنافى مع ترك الواجبات ومع القيام بالاسباب المحرمة او الوهمية التي تتنافى مع العلم والتجربة والواقع كما يتنافى مع المغالاة بالاسباب مغالاة تدل على وسوسة او جزع من الفشل . وليس من التوكل

(١٥) وللنصر عوامل واسباب معنوية ومادية فالسلاح احد الاسباب المادية .

(١٦) رواه الترمذي من عفان بن المغيرة بن شعبة عن ابيه المغيرة وقال هذا حديث صحيح . واخرجه ابن ماجه ايضا في الطب ـ باب الكي .

الخروج عن سنن الخالق الوكيل في مخلوقاته . ومن رغب التوسع في بحث التوكل فعليه بكتاب (احياء علوم الدين) ـ بحث التوكل ـ وكتاب (جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم) لابن رجب الحنبلي في شرحه الحديث التاسع والاربعين .

آثار التوكل :

كثيرا ما يحظى المتوكل الصادق في توكله بالغايات الطيبة المرجوة في هذه الحياة الدنيا توفيقا من الله ومنا ، وصدق الله العظيم « **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** » اي كافيه .

وللتوكل الى جانب ذلك آثار طيبة في النية وفي ذات العمل المرافق له وفي نفسية صاحبه . فمن آثاره في النية ترسيخ النية الصالحة وابلاغها اعلى درجاتها اي الاخلاص لله تعالى والبعد عن الرياء . ومن آثاره في العمل تخليصه من شوائب المعاصي والبعد فيه عن الطرق المحرمة للوصول الى الغاية الدنيوية المباحة المتوخاة من العمل لان المتوكل على الله حقا لا يسلك طرق الكسب الحرام فلا يرابي ولا يغش ولا يخون ولا يهمل واجبه .

ومن آثاره في نفسية صاحبه ان يقوي صبره ويكسبه الرضى والطمأنينة ويبعد عنه الجزع والقلق والتوتر والهموم في انتظار نتيجة العمل . يقولون : ان الصبر ثوب ينسجه الامل ، واقول : ان روح امل المؤمن هو الرجاء من الله والتوكل عليه ، فالتوكل اذا دعامة الصبر وروحه فيه يقوى الصابر على ملازمة طاعاته لله تعالى وعلى ضبط شهواته فلا تقوده الى محرم ، وبه يقوى على تحمل المصائب والثبات في النكبات فلا يطيش ولا يهلع ولا يقنط من روح الله والتوكل عليه ، فالتوكل إذا دعامة الصبر وروحه فيه يقوي الصابر على والاستعانة به تبارك وتعالى . قال الله سبحانه : « **ومن يطع الرسول فقد اطاع الله ومن تولى فما ارسلناك عليهم حفيظا * ويقولون طاعة فاذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فاعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا** » (١٧) ان نفوس المسلمين بعد اطلاعها على اخلاق وبعض تصرفات المنافقين قد يصيبها الهم فتقلب وجوه الامر حول ما يبيت المنافقون وما يكيدون به فالله سبحانه علمنا في هذه الآية : الالتجاء اليه والاعتماد عليه لتسكن نفوسنا ولا تجزع لظنون او اوهام وان اخذ الحذر من الاعداء والمنافقين لا ينبغي ان يترافق مع الهلع او تشتت الفكر فاوصى الله رسوله ومن ورائه المؤمنين بالتوكل عليه ففيه الدواء قال تعالى : « **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** » .

(١٧) النساء/٨٠ ـ ٨١ .